

الفخار النسائي بالريف بين الأصالة والحماية قراءة أولية في تجربتين محليتين

صباح علاش
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

Le patrimoine culturel est une source qui reflète la mémoire et l'histoire des communautés ancestrales, leurs valeurs et leurs savoir-faire individuels et collectifs.

Dans cette contribution, nous essayerons de mettre en relief l'importance de la valorisation du patrimoine, notamment celui lié à la poterie féminine, art spécifique au Rif, comme valeur culturelle et esthétique.

يعتبر الفخار من أقدم الحرف والصناعات التي مارسها الإنسان في مختلف بقاع العالم، إذ زاولها منذ ما قبل التاريخ، واستمرت استعمالاته الواسعة، سواء باعتبارها منتجات نغمية وظيفية، أو تزيينية جمالية، إلى يومنا هذا.

ويختزن الفخار ذاكرة وتاريخ المجتمعات التي أنتجته، ويعكس قيمها الثقافية، وسلوكياتها وإبداعاتها الجماعية والفردية، ويعتبر سجلا لطبائعها وتقاليدها ومعتقداتها، وهو بذلك شاهد عيان على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للشعوب، (لحسن تاوشیخت، 2008 : 406).

وقد أكدت الدراسات الخاصة بالفخار في المغرب، على مجموعة من الخصوصيات المرتبطة بمختلف المناطق، ومنها الريف، الذي تتميز صناعة الفخار بأغلب مناطقه بطابعها الخاص (Moga, 2009 :480-483) (Pascon,1983 : 211)، والمحافظة على أصالتها، وتقنياتها العتيقة، وأشكالها وزخارفها الأصلية والمتنوعة.

لكن هذا التراث الفخاري الريفي الأصيل، الذي يعتبر رافدا من التراث الأمازيغي بشكل عام، أصبح في العقود الأخيرة عرضة للضياع والتراجع، الأمر الذي يهدد مجموعة من القيم التراثية الثقافية والفنية والجمالية بالانقراض، وجانبنا من الذاكرة التقنية الأصلية للمناطق المنتجة بالمحو.

وللكشف عن واقع الفخار بالريف، وخاصة النسائي منه، والتعريف بخصوصياته الصناعية والجمالية، وحمولته الثقافية، وتقريب واقع المحافظة عليه وحمايته، تم التركيز على دوازي تاغزا، من قبيلة بيقوين/ بقيوة ، ويدرودوشن ٤٨٠٨٨٤٢ من قبيلة آيت ورياغل، حيث تم الوقوف على غنى وأهمية هذا التراث الثقافي الأمازيغي، على مختلف المستويات، اللغوية الأمازيغية، والرمزية الثقافية، والاقتصادية المعيشية، والجمالية الفنية. ويمكن هذا الاختيار من مقارنة نموذجين وتجربتين مختلفتين:

التجربة الأولى تاغزا ٥٥٤٦٥٨: حافظت على كل مقوماتها التقليدية الأصلية، وفشلت في إدماج تقنيات جديدة، والانفتاح على أشكال تدبيرية عصرية، تضمن انتقال الخبرات الصناعية إلى أجيال جديدة، وأصبحت معها المحافظة على استمرارية إنتاج الفخار مهددة بالتوقف في أي لحظة.

والتجربة الثانية إدرودوشن ٤٨٠٨٨٤٢: نجحت في ضمان استمرارية صناعة الفخار النسائي بالريف، وفي تطوير طرق العمل وأساليب الإنتاج والتدبير، مستفيدة من المقاربة التشاركية المرتكزة

على النوع، التي اعتمدها جمعية بادس للتنشيط الاجتماعي والاقتصادي بالحسيمة، في إنشائها لمركز التكوين وإنتاج الفخار بدوار يدرودشن.

1- أهمية الفخار بالريف وخصائصه

الفخار هو كل المنتجات التي يُستعمل الطين، كمادة أولية، في صناعتها، حيث تعرض للتجفيف بعد تشكيلها ثم تشوى بالنار، لتكتسب المادة الأولية صفات طبيعية وكيميائية جديدة، مثل تغير اللون والزيادة في الصلابة، واكتساب الرنين، مع استحالة إعادة إلى الحالة الأولية.

ويعتبر الفخار بالريف، على غرار مختلف مناطق العالم، من الحرف والصناعات القديمة، فمختلف المواقع الأثرية والتاريخية تعج ببقايا الأواني الفخارية، وخاصة الأجزاء المتكسرة، وهو ما تؤكد اللقى التي عثر عليها في مختلف هذه المواقع، والتي توجد في عدة متاحف وطنية وجيوبية، منها: متحف الآثار بنطوان ومتحف الآثار بالرباط ومتحف البطحاء بفاس ومتحف القصبية بطنجة¹.

وقد عاينا عدة قطع فخارية، خلال مختلف زيارتنا الميدانية للمواقع الأثرية، مثل نكور، وبادس. كما وقفنا على عدة قطع وأجزاء بالمزمة، خلال معابنتنا، يوم 31 مارس 2010، للتنقيبات التي كانت تجرى بالموقع، وكما أكدت ذلك عدة دراسات تاريخية وأركيولوجية، (Almansa, et al, 1981-1982).

يبدو أن صناعة الفخار بالريف قد حافظت على استمراريتها خلال مختلف العصور التاريخية، وإلى يومنا هذا، حيث كانت تمارسها جل العائلات، وذلك بإنتاج حاجياتها المنزلية الضرورية، غير الموجهة إلى التسويق، وعُرفت مجموعة من المناطق بإنتاج الفخار الموجه للتسويق، وارتبطت أسماء بعضها بهذه الصناعة، مثل دهارن رقصوع OZC8H I 8000، مرتفع الأواني الفخارية، بأجدير في آيت ورياغل. ووضعت مجموعة من الدراسات خرائط لهذه المراكز الفخارية، منها:

(Berrada, 2001 :8-9) ; (Bazzana et al, 2003 :12-28)

تشتهر مجموعة من المناطق بالريف الأوسط بإنتاج الفخار. فقبيلة تسمان تعرف بفخارها المائل لونه إلى البياض، وتماسينت، وخاصة مركز يدرودشن معروفة بإنتاج الأواني الأصلية رقصوع ن راصر OZC8H I Q00Q، ومنطقة تاغزويث ن داسا +000، وبقبيلة بني توزين معروفة بإنتاج الأدوات الفخارية المستعملة في جلب الماء رحوايح وقدار O8L06I 8Z8800.

تعتبر هذه الصناعة في معظم مناطق الريف اختصاصا نسائيا. فإلى جانب قيام النساء، باختلاف أعمارهن، بالأعمال اليومية الاعتيادية، يقمن كذلك بأعمال موسمية مختلفة منها ما هو مرتبط بالطين، كبناء الفرن الطيني التقليدي لطهي الخبز ثاينورث +061180+ (الصورة 11 أدناه)، وإعداد الأثافي ينيان/16ه لطهي الطعام. وفي بداية فصل الخريف، واستعدادا للتساقطات المطرية، تقوم النساء بإصلاح سقوف المنازل/تيزغوين +6K4L6I، وذلك باستعمال الطين الذي يتميز بنفاذيته الضعيفة، ويقمن بتبليط الأرض، وصباغة الأسوار باستخدام التربة البيضاء ومريز 8000.

كما تقوم النساء بصنع أسرار 0000 حاجياتهن من الأدوات والأواني الفخارية، لمختلف الاستعمالات والمناسبات. وقد حظيت هذه الصناعة الريفية باهتمام الباحثين الذين أشادوا بجماليتها: "تستحق صناعة الفخار التي تقوم بها النساء تنويها خاصا إذ رغم سهولة انكسار الأواني الفخارية المصنعة في آيت ورياغر، إلا أنها تعتبر، بشهادة الخبراء في هذا المجال، من أجمل وأروع الفخار من حيث التصميم والزخرفة في عموم العالم القروي بالمغرب"، (دافيد هارت، 2007: 56).

فما هي مراحل وخصائص صنع الفخار النسائي بالريف وخاصة بدواري تاغزا ويدرودشن؟

¹ www.minculture.gov.ma, décembre 2010

الفخار النسائي بالريف بين الأصالة والحماية. قراءة أولية في تجربتين محليتين

2- الطريقة التقليدية في صنع الفخار بدوار تاغزا ومحاولة تحديثها:

1-2 مراحل صنع الفخار:

للقوف على مختلف مراحل صنع الفخار بالريف، عقدنا لقاءات مع نساء زاولنه، وقمنا بزيارة ميدانية لأحد أهم المراكز المعروفة في قبيلة بيقوين بصنع الفخار، وهو دوار تاغزا. (الصورة 1)²



الصورة 1: منظر عام لدوار تاغزا 4%±

يعتبر هذا الدوار من أشهر الدواوير في مجال صناعة الفخار النسائي، إذ كان يعج بالنساء الصانعات للفخار المتميز بجودته العالية، والمحافظ على أصالته، لكنه اليوم لم تبق فيه سوى امرأتين لا زالتا تمارسان هذه الحرفة.

وقد كان لنا لقاء مع إحداهن عاينا من خلالها مختلف المراحل الصناعية³. ويتعلق الأمر بحبيبة إعبكريمن، التي تجاوز عمرها خمسين سنة، وتزاول حرفة الفخار منذ ما يزيد عن ربع قرن. وقد حافظت على طريقة الصنع كما تعلمتها في ورشات نساء الدوار، ولم تدخل عليها أي تقنية أو أدوات جديدة.

أول خطوة في صناعة الفخار هي اختيار المادة الأولية وجلبها، والمتمثلة في صخور رسوبية، أهمها الطين يذقي $\Sigma\Lambda Z Z \Sigma$ ، الذي يكون خالصا أو ممزوجا بالكلس/ أمجيار $\sigma\text{CII}\text{I}\text{e}\text{O}$ ، ويسمى السجيل، أو يكون محولا بفعل الضغط والحرارة مما يكسبه صلابة كبيرة، ويعرف بالشبيست أفارش $\sigma\text{H}\text{e}\text{O}\Sigma\text{C}$. وترتبط المادة المختارة بطبيعة الأواني والأدوات المراد صنعها، فإذا كان الأمر يتعلق بأدوات منزلية لا يرتبط استعمالها بالحرارة، يتم اختيار الطين لكون عجينه طيعا بشكل كبير، ويعرف بملمسه، وخاصة لصقه بلعاب اللسان، وتتميز جزيئاته بصغرها، ونفاذيتها الضعيفة، أما إذا كانت الأدوات المزمع صنعها يستلزم استعمالها التعرض للحرارة، كأدوات طهي الطعام والخبز، وإشعال

²أخذت الصور الموجودة في المتن من طرف الكاتبة أثناء الزيارة الميدانية لدوار تاغزا

³ يتعلق الأمر بالزيارة الميدانية التي قمنا بها لدوار تاغزا يوم 15-11-2011

صباح علاش

النار، فيضاف إلى الطين أو السجيل، قليل من الشيست، ليزيد من صلابة الأنية وقدرتها على تحمل الحرارة ومقاومة الانكسار. وتكون أجود أنواع الطين على عمق كبير، مما يصعب الوصول إليها.

بعد إحضار الطين، الذي تقوم به حبيبة بمفردها، وغالبا ما تحمله على ظهرها من مسافات بعيدة، ينشر ليبس ويجف. ثم تأتي عملية الخبط والدق باستعمال مخباط تازدوزت $+o\% \times \wedge \% \times +$ ، وهو عبارة عن عصا غليظة، يخطب بها الطين الخام إلى أن يصبح مسحوقا. كما يتم إعداد كمية أقل من مسحوق آخر، يشتق من أجزاء وشطايا الأواني الفخارية المستعملة والمنكسرة، يسمى أفرور $o\% \text{HO}o$ ، وذلك بخطها أو طحنها باستعمال رحي حجرية يدوية، وتعتبر عملية الخبط أصعب وأشق مراحل إعداد المادة الأولية لصنع الفخار.

بعد عملية الغرلة أسيف $o\% \Sigma \text{HH}o$ للمسحوقين باستعمال غربال سلكي، يتم خلطهما، إذ يضاف الثاني الذي يعتبر مادة لاحمة، إلى مسحوق الطين الخام، لتبدأ عملية العجن والدعك والتقليب بإضافة الماء، إلى أن يصبح العجين أمروي $o\% \text{OUL}o$ متماسكا ومتجانسا وطيعا.

وتبدأ عملية التشكيل أمسار $o\% \text{O}o$ ، إذ توضع قطعة خشبية، في الغالب دائرية، فوق أنية طينية مستعملة مقلوبة ثممقدارات $+o\% \text{Z}o \wedge \wedge o\% \text{O}+$ ، تعوض الدولاب، (الصورة 2)، ويسوى فوق القطعة الخشبية جزء من العجين ليشكل قاعدة الأنية، وبعدها تُشكل الأنية بصورة متدرجة بإضافة طبقات جديدة من العجين، واستعمال قطعة خشبية ملساء مستطيلة ومقوسة قليلا أمزرا $o\% \wedge o\% \times$ تساعد على إعطاء الشكل المرغوب فيه للأنية، كما يستعان بالماء وبحجرة ملساء صغيرة، تعين في ذلك وصقل الأنية المشكلة من الداخل والخارج، (الصور 3-4-5). وإذا كانت الأنية كبيرة رفشعت $o\% \text{Z}o \text{H}+$ ، تصنع على مراحل، إذ تترك الأجزاء المشكلة برهة لتتماسك، وتعاد لتستكمل تدريجيا، وبالتناوب مع باقي الأواني، إلى أن تأخذ شكلها النهائي.

وتمرر قطعة من الجلد أو الثوب، في اللمسات الأخيرة على الأنية، وخاصة من أجل تدقيق الحافات. وخلال مختلف مراحل التشكيل يتم تدوير اللوحة الحاملة للأنية لمعاينة مختلف جوانبها، وإجراء التدخلات واللمسات المناسبة.



الصورة 3: الطبقات الأولى في تشكيل الأنية $+o\% \text{HO}o\% \text{C}+ +o\% \text{C} \times \wedge o\% \text{O}+ | \wedge \wedge \text{Z} \times$



الصورة 2: الأنية واللوحة التي تعوض الدولاب $+o\% \text{Z}o \wedge \wedge o\% \text{O}+$



الصورة 5: صقل الجهة للأنية $o\% \wedge o\% \times | o\% \text{Z}o \text{H}+$



الصورة 4: تسوية النتوءات الزائدة للأنية $o\% \text{Z}o \wedge \wedge o\% \text{O} | o\% \text{Z}o \text{H}+$

تبنى بعض النساء، في مناطق أخرى من الريف، طريقة مختلفة في تشكيل مصنوعاتهن، إذ يضعن فوق القطعة الخشبية كمية العجين الضرورية لصنع أنية ماء، دفعة واحدة. ويقمن بتطويعها وتشكيلها باستخدام قوة اليدين وباقي الأدوات، إلى أن تتخذ شكلها النهائي، وهو ما يضمن للأنية تماسكا أكبر (Elhraiki, 1989: 219).

وبعد أن تنتهي الصانعة من التشكيل النهائي للأنية، تنقلها إلى المكان الذي ستجف فيه من الماء الموجود فيها، إذ تترك في مكان تصله التيارات الهوائية، بعيدا عن المصدر المباشر للحرارة، وتستغرق عملية التجفيف، بين أربعة وعشرين ساعة في فصل الصيف، وسبعة أيام في فصل الشتاء.

وبعد تمام بيوسة الأنية تفصل عن الإطار الخشبي الذي شكلت فوقه، لتتم عملية إزالة الشوائب باستعمال المنجل الكبير أو الصغير، حسب حجم الأنية. وتبدأ عملية الصقل باستعمال الماء والحجرة الملساء التي تستعمل أثناء التشكيل، ويحضر قليل من العجين لملء بعض الفراغات التي تنتج عن بعض الشوائب الصغيرة، مثل الحصى، أو عن فقاعات الهواء. ويمكن استعمال تربة ذات لون أبيض ومرير CaCO_3 أو أحمر وزويغ MgO التي تمزج بالماء لصبغة الأنية حسب الطلب.

وأخيرا تأتي عملية الرسم والرسم الزخرفة التي تستعمل فيها نساء ثاغزا نوعا من الحجارة تسمى، أسبو CaO (الصورة 7)، وهي حجارة صلبة سوداء أو حمراء، غنية بالمنغنيز، تطلق لونها عندما تحك مع جسم صلب وخاصة الأدوات الحديدية، يضاف إليها قليل من الماء، لتنتقل عملية رسم الأشكال المختلفة، باستعمال فرشاة دقيقة عبارة عن ريشة من جناح الدجاج، أو قطعة صغيرة من الصوف أو الإسفنج، التي تكون معزولة أو مربوطة بقطعة خشبية تشبه القلم في شكلها. وفي مناطق أخرى، خاصة بأيث ورياغل، تستعمل أوراق شجيرة البطم الدر H. E. E. O /lentisque /فاضيس في الزخرفة.

تنصب عملية الرسم، بشكل كبير، على الأدوات والأواني التي لا تتعرض للحرارة في استعمالها، كالممخضة، والخوابي والجرار والقلال وأباريق الماء واللين. أما الأدوات المعرضة للحرارة كالقدور والطواجن فتكون رموزها وأشكالها قليلة أو منعدمة.

ترتبط الأشكال المرسومة بطبيعة الأداة، فالممخضة/أقشور ZCO_2O أو أمسندو CaO /أجروج CaO (الصورة 6) يستعمل في تزيينها، رسم السعفة أو السنبل/ثيدريت Fe_2O_3 ، أو نبات آخر، إضافة إلى الخطوط الأفقية والمائلة، وتستعمل الورود والنجمات والأشكال الهندسية في زخرفة الأباريق والقلال وغيرها من المنتجات.



الصورة 7: حجر أسبو CaO المستعمل في الزخرفة



الصورة 6: الممخضة/أقشور ZCO_2O

بعد عملية الزخرفة، يتم إعداد الموقد/يقاذ ZVZ الذي توضع فيه الأواني للشي، وهو عبارة عن حفرة في أرض صلبة، يجمع الحطب المستعمل فيه من مناطق بعيدة، ويشترط في المواد المستعملة أن

تكون عضوية، وبطيئة الاحتراق، كي لا ترفع حرارة الموقد إلى درجة عالية دفعة واحدة، وتتسبب بذلك في كسر الأواني، وتتكون هذه المواد من الأعشاب الجافة، وجذور/يزوران $\Sigma\%8Q\alpha$ وفروع/ديعضوين $\Sigma\Theta E \Sigma \Pi \Sigma$ الأشجار والنباتات التي تحملها الأودية، والصبار/بفودار $\Sigma H 8 / \alpha \circ O$ الجاف، والجذوع الميتة/ يکنزوزن $\Sigma X I \% \% \% \Sigma$ للحفاء، إضافة إلى روث المواشي/ أفغور $\alpha H I \% Q$ ، ويتم وضع طبقة أولية في قاع الموقد، ثم تصفف وترص أسدف $\alpha \Theta \wedge \wedge H$ المنتجات المعدة، وتغطي بطبقة أخرى من المواد المجلوبة للشي، يكون سمكها مرتبطا بعدد الأواني المرصوفة بالموقد. وتوقد النار التي تستمر لساعات طويلة تتجاوز في الغالب نصف اليوم، (الصورتان 8 و 9) وتنجز العملية غالبا في المساء، لتستمر الأواني ليلة كاملة تحترق على مهل، لتتضح بشكل تدريجي.

وبعد أن تخمد النار تترك الأواني في الموقد إلى أن تبرد بشكل نهائي، ثم تستخرج بكل عناية، وتنظف من الرماد العالق بها، لترتب في مكان خاص، قليل الحركة لتجنب تعرضها للكسر. ثم تتم عملية تنظيف الموقد من الرماد الذي تخلفه وراءها الأواني والحطب الذي أشعل.

وإلى جانب الموقد الذي يكون محفورا في الأرض، أو مباشرة فوق سطحها، يستعمل، بشكل محدود، الفرن أو التور/ ثاينورث $\alpha \circ \% \Pi \alpha \circ +$ المبنى بالتراب، لشي المنتجات الفخارية.

والعملية الأخيرة هي نقل المنتجات المصنوعة إلى السوق الأسبوعي لبيعها، إذا كانت معدة للبيع، كحالة حبيبة إعدكريمن التي تنقلها إلى سوق أحد الرواضي، القريب من تاغزا؛ أو يحضر زبناؤها إلى عين المكان لتسلم بضاعتهم التي تكون قد أنجزت تحت الطلب. أما إذا كانت معدة للاستعمال العائلي، فيتم نقلها إلى أماكن استعمالها داخل أو خارج البيت، ووضع الفائض في مخزن خاص، وذلك بعد تبادل جزء منه مع الأقارب أو الجيران، أو إهدائه لهم.



الصورة 9: أواني محمرة داخل موقد الشي $\alpha \Theta \Sigma \% \alpha$
 $\% \Pi \alpha \alpha + \times \Sigma \Sigma \Sigma \alpha \wedge$

الصورة 8: الموقد/يقاد $\Sigma \Sigma \Sigma \alpha \wedge$ عبارة عن حفرة

تستعمل في هذه الصناعة الخزفية أدوات بسيطة، فعدة حبيبة لا تتجاوز ما تبينه الصورة 10 (أنية فخارية مستعملة تعوض الدولاب، وألواح خشبية دائرية، ومخباطان خشبيان مختلفا الحجم، ومنجلان مختلفا الحجم، وأحجار صغيرة لمساء، وقطعة خشبية مستطيلة مقوسة قليلا، وقطعتان من الثوب والجلد)، إضافة إلى المعول / أكرزيم $\alpha \times \alpha \circ \alpha \% \Sigma \Sigma \Sigma \alpha \wedge$ ، لحفر الأرض من أجل الحصول على المادة الأولية، وهذا ما جعل عددا من الباحثين ينعنون هذا الفخار بالتقليدي والبدائي (Berrada, 2001 :24-26).



الصورة 11: فرن طيني / ثايئورث+080+0



الصورة 10: الأدوات المستعملة في صناعة الفخار

2-2 فشل محاولة تحديث صناعة الفخار بـثاغزا:

عرف دوار ثاغزا محاولة لتحديث طريقة إنتاج الفخار، بين سنتي 2003 و2006، وذلك بإنشاء الجمعية الإسبانية المعروفة بحركة السلام ونزع السلاح والحرية (MPDL)، والحكومة المحلية للأندلس، بشراكة مع المجلس الجماعي للرواضي، لمركز نسوي صغير وعصري بـثاغزا، لتنظيم النساء المنتجات للفخار في تعاونية، واستعمال الفرن الغازي في شي المنتجات الفخارية.

اشتغل هذا المركز ثلاث سنوات، وهي مدة المشروع، لكنه فشل في الاستمرارية ليغلق، وتتوقف معه أحلام نساء الدوار في تطوير صناعة الفخار وتحديثها، وهو ما حدا بمجموعة منهن إلى التوقف نهائيا عن هذه الصناعة. تقول حبيبة إعبديريمن عن هذا المركز:

"كان مركزا مهما يجمعنا نحن نساء الدوار الصانعات للفخار، وكان الفرن الغازي يساهم في إنتاج فخار ذي جودة عالية. لكننا واجهنا مشكل الحصول على المادة الأولية، أي الطين، نظرا لتشدد مالكي الأراضي التي نستخرجه منها، وكذلك غلاء الغاز. وباستثناء الشهور الأولى لعمل التعاونية بالمركز، والتي كان مردودها جيدا، واجهنا مشكلة التسويق، إذ كنا ننتظر أكثر من شهر لنبيع بعض القطع. وبعد عدم وفاء القائمين على المشروع بوعدهم، المتعلق بتسويق المنتجات في مركز ينشأ بمدينة الحسيمة، وربط الاتصال بموزعين خارج الإقليم، اضطرت النساء العاملات بالمركز إلى الانسحاب تباعا، وأغلبهن طلقن المهنة بشكل نهائي".

أما نور الدين أحروش⁴، فأشار⁵ إلى الأهمية التاريخية لصناعة الفخارية بدوار ثاغزا. واعتبر أن مشروع MPDL ولد ميتا، إذ لم يتم الإشراك الفعلي للمعنيات بإنتاج الفخار أثناء إعداد المشروع، وذلك بمعرفة مشاكلهن الحقيقية. واعتماد مقاربة شمولية لصناعة الفخار، من المادة الخام إلى التسويق، وتأهيل النساء ليسيرن التعاونية بأنفسهن، حيث ركز المشروع على عملية التصنيع دون غيرها. لتواجه الصانعات صعوبة الحصول على المادة الأولية، والتسويق، بعد توقف الدعم، خاصة مع ارتفاع تكاليف النقل نتيجة لصعوبة المسالك.

⁴ من أبناء دوار ثاغزا، وأستاذ بمركز الرواضي، وكتائب عام لجمعية الرواضي للبيئة والتنمية

⁵ جاء ذلك في حوار أجريناه معه.



الصورة 12: يافطة مركز الفخار بثاغزا ⵜⴰⵎⴰⵙⵓⵏⵜ

3-2 تجربة مركز يدرودشن في تحديث صناعة الفخار بالريف:

يقع دوار يدرودشن الذي تضرر كثيرا بفعل زلزال 24 فبراير 2004، قرب مركز تاماسينت بتراب جماعة إمبراطن القروية، بإقليم الحسيمة. يحتضن هذا الدوار مركز التكوين والتنمية الحرفية لنساء يدرودشن - تاماسينت، (CFDAI)، (الصورة:13) التابع لجمعية بادس للتنشيط الاجتماعي والاقتصادي بإقليم الحسيمة.

والمركز مشروع مندمج، كما يقول عنه فيصل أوسار، عضو جمعية بادس والمسؤول عن مشاريع تنمية المجال القروي فيها. أنجز باعتماد مقاربة تشاركية، ارتكزت على دراسات ميدانية للجمعية حول النسيج الاقتصادي والاجتماعي لإقليم الحسيمة، استغرقت حوالي سنة ونصف، تم فيها الإنصات للفاعلين المدنيين، والباحثين الأكاديميين والسكان المحلية.

وفرت هذه الدراسات للجمعية قاعدة معطيات وأرضية صلبة، مكنتها من بلورة مجموعة من المشاريع في عدد من المناطق، تراعي خصوصية كل منطقة ومميزاتها الاقتصادية، وتهدف إلى حماية مقوماتها التراثية، وفي دوار يدرودشن رصدت أهمية الحرف الفخارية النسائية، فتمت صياغة مشروع بناء مركز (CFDAI)، من أجل حماية هذه الصناعة من الانقراض، وإدخال الأساليب العصرية في إنتاجها وضمان نقلها إلى الأجيال الجديدة عبر التكوين.

أنجز هذا المشروع بشراكة بين جمعية بادس للتنشيط الاقتصادي والاجتماعي بإقليم الحسيمة، حاملة المشروع، والوكالة الإسبانية للتعاون الدولي كمؤسسة ممولة، وجمعية CIDEAL الإسبانية كمؤسسة وسيطة.

يعتمد هذا المشروع المندمج مقاربة النوع، والتمكين للنساء. فإلى جانب التكوين في الفخار، أضيف التكوين في مجال الخياطة وخاصة التقليدية، ومحاربة الأمية الأبجدية، والقانونية للنساء والفتيات المستفيدات، والتربية على حقوق الإنسان والمواطنة.

الفخار النسائي بالريف بين الأصالة والحماية. قراءة أولية في تجربتين محليتين



الصورة 13: صورة تركيبية لمركز يدروشن، حيث تبدو في الجزء الأعلى الواجهة الخارجية للمركز، وفي الجزء الأسفل: الورشات الداخلية. على اليمين: ورشة الفخار، في الوسط: ورشة الخياطة، وعلى اليسار قاعة الأنشطة ومحاربة الأمية. (مصدر الصورة: جمعية بادس)

ولضمان فرص النجاح للمشروع في مجال الفخار، وقيل انطلاقته، تم إرسال المنسقات والمشرفات على المشروع لزيارة ومعاينة مراكز التكوين في صناعة الفخار والخزف، وكذلك ورشات الإنتاج، بمدينة فاس وأسفي، للاطلاع على مختلف مراحل ووسائل الإنتاج العصرية للفخار.

واستقدمت أمهر النساء في صناعة الفخار بدوار يدروشن، وعلى رأسهن ماموش سلطان، للإشراف على تكوين فتيات الدوار ميادئ الصناعة الفخارية، وهي العملية التي تمت بكل سلاسة وسهولة، ونجحت النساء في استعمال الأساليب العصرية في الإنتاج، مع الحفاظ على الطابع الأصيل للمنتجات.

فعلى خلاف الطريقة التقليدية، يمر تصنيع الفخار بهذا المركز بمجموعة من الخطوات، التي تندرج ضمن مرحلتين كبيرتين:

- **مرحلة إعداد العجين الطيني:** تبدأ بإحضار المادة الأولية التي تنقل بواسطة الجرار، بعد استخراجها من أرض في ملكية المركز، ومعروفة منذ القدم بجودة تربتها الطينية. ثم يتم تهشيم الطين وتفتيته بواسطة طاحونة كهربائية، ليوضع بعد ذلك في أماكن معدة ليغمر بالماء ويترك للاختام. بعدها يصفى في مناخل خاصة، ثم يرشح إلى أن يصبح ناعما وخاليا من الشوائب. ويعرض هذا العجين السائل للهواء والشمس إلى أن يتماسك، ثم يُعجن بشكل جيد إلى أن يصبح متجانسا وطيعا للتصنيع، فيوزع على أكياس بلاستيكية، لتخزينه والمحافظة عليه رطبا وسهل التشكيل.

- **مرحلة التشكيل والتصنيع للمنتجات الفخارية:** تتم باستعمال العجين المعد في المرحلة الأولى، وتقوم الفتيات بصناعة المنتجات المطلوبة وذلك باستعمال الدولابين، الكهربائي والمدار بالقدم. وبعد أن يتخذ العجين الشكل الأولي المطلوب، يوضع فوق لوحة خشبية لإجراء التعديلات الضرورية عليه إلى أن يتخذ الشكل النهائي، ويترك بعد ذلك ليجف تحت أشعة الشمس والهواء، ليتم على مراحل إدخال التحسينات والإضافات المطلوبة، عبر عمليات التسوية والصفل. وبعد أن يجف بشكل جيد، تتم عملية طلاء المنتجات باستعمال تربة بيضاء ممزوجة بالماء. وبعدها تأتي عملية الزخرفة، التي تستعمل

فيها صباغة نباتية مشتقة من شجيرة فاضيس $H_2E\Xi O$ البطم، لتأتي الخطوة الأخيرة وهي التجفيف والشّي داخل الأفران الغازية بالمركز.

وفي إطار مقاربة التمكين للنساء التي اعتمدها جمعية بادس، بادرت 24 من المستفيدات من دروس التكوين في الفخار العصري والتقليدي بالمركز، إلى تأسيس تعاونية نساء يدرودشن لإنتاج الفخار وتسويقه ، وذلك يوم 18 غشت 2004، ومن أهدافها:

- توفير المواد الأولية ووسائل العمل، لفائدة المنخرطات في التعاونية؛
- تطوير طرق العمل وأساليب الإنتاج؛
- تحسين الظروف المادية والاجتماعية والثقافية والمهنية للمنخرطات،
- تكوين فتيات القرية في صناعة الفخار؛
- تسويق منتجات التعاونية؛
- المشاركة في المعارض المحلية والجهوية والوطنية والدولية؛
- خلق علاقات شراكة مع مختلف الفاعلين في مجال اختصاصات التعاونية

استفادت التعاونية، في إطار مشروع جمعية بادس، من الدعم الذي مكنها من فتح نقطة لبيع الفخار التقليدي الريفي، في ساحة إفريقيا، وسط مدينة الحسيمة. وبعد انتهاء مدة الدعم، نقلت نقطة البيع إلى فضاء المنتجات التقليدية، التابع لمندوبية الصناعة التقليدية بساحة الريف.

وقد نجحت التعاونية في ترجمة أهدافها على أرض الواقع، واستفادت عضواتها من خبرة ماموش سلطان، التي توفيت بعد أربع سنوات من انطلاق عمل المركز، وانتخبت ابنتها حفيظة الخطابي رئيسة للتعاونية، وشاركت في عدة معارض محلية، وجاهوية ووطنية، كما شاركت منتجاتها في معارض خارج المغرب. كما كانت التعاونية ورئيستها ضيفة على المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الذي احتضن معرضا لها، وكرم رئيستها، بمناسبة اليوم العالمي للمرأة، 13 مارس 2008.

كما نجحت الجمعية في تطوير منتجاتها وتنوعها، حيث حافظت على الأشكال التقليدية لمختلف المنتجات المعروفة في المنطقة، وكذلك على الأشكال والزخارف المعتمدة في الريف، واختارت شعارا لها، الشكل الأكثر استعمالا في قبيلة آيت ورياغل، وأبدعت منتجات تزيينية جديدة. (صور لنماذج من منتجات التعاونية).

الفخار النسائي بالريف بين الأصالة والحماية. قراءة أولية في تجربتين محليتين



16



15



14



19



18



17

الصورة 14 : (٥٠٢٠٠٠٠)15-(٥٠٢٠٠٠٠)16(٥٠٢٠٠٠٠)17(٥٠٢٠٠٠٠)18(٥٠٢٠٠٠٠) :
(٥٠٢٠٠٠٠)19(٥٠٢٠٠٠٠) : نماذج من منتجات مركز إدروشن، المعروضة بالفضاء
التابع لمندوبية الصناعة التقليدية بمدينة الحسيمة

خاتمة:

يشكل الفخار النسائي بالريف تراثا مهما، يجمع بين ما هو مادي باعتباره تراثا منقولاً، يشمل الجانبين الوظيفي النفعي والجمالي التزييني، وما هو ثقافي غير مادي، باعتباره جزءاً من الذاكرة التقنية المهارية الأصيلة للمنطقة، وذاخراً بقيم فنية وجمالية رائعة، تحمل دلالات اجتماعية وثقافية واعتقادية متعددة، إذ تكاد كل قبيلة أو فخذة تتميز بزخارفها الخاصة، وأشكالها الهندسية المميزة. فعلى سبيل المثال نجد قبيلة آيت ورياغل تتميز أغلب منتجاتها الفخارية بحمل رسم يشبه قاربا في البحر، ودخله بحار بيديه مجداف، وفي الوقت نفسه يبدو كطائر ينظر إلى السماء.

وترتبط بإنتاج وصناعة الفخار مجموعة من الطقوس والعادات، منها العمل الجماعي وترديد مجموعة من الحكايات والأحاجي، وكذلك نظم الشعر الأمازيغي/ إزران.

ونظراً لقيمه التراثية والفنية أثار الفخار الريفي اهتمام عدد من الباحثين والفنانين والهواة، منذ الفترة الاستعمارية. فقد بدأ إيميليو بلانكو دراسة الفخار عندما كان مراقباً بقبيلة بغيوة، (Moga) (480 : 2009) وواصلها بعد ذلك في إطار دراساته الأنتروبولوجية حول الرقص والقانون والمعمار بالريف، (صباح علاش، 2009 تحت الطبع) وانتبه مبكراً إلى أهمية هذه الحرفة النسائية وخصوصيتها، والمخاطر التي تهددها بسبب غزو المنتجات الصناعية المرتبطة بالثورة الصناعية الأوروبية، للأسواق والبيوت الريفية.

وقد أصبح خطر انقراض هذه الصناعة أمرا واقعا في العقود الأخيرة، مما دفع بعدد من الفاعلين إلى محاولة حفظ ما يمكن من هذا التراث الغني. ويمكن الإشارة إلى عمل الفنان التشكيلي حماد براءة المعنون بالفخار النسائي بالمغرب، والذي طبع سنة 2001، وقدم لأول مرة بمدينة الحسيمة يوم 25 ماي 2002، في إطار نشاط لجمعية توبا للعمل النسائي، بحضور مؤلفه وعدد من الباحثين، إلى جانب معرض للمنتجات الفخارية لنساء تغزا.

وبدأت الجمعيات المدنية، وخاصة التنمية، الوطنية والأجنبية، تهتم بالفخار. مما أثمر مجموعة من المشاريع والمبادرات الهامة، منها مشروعى تاغزا ويدردوشن المتحدث عنهما أعلاه، واهتمام الجمعيات السياحية والثقافية بموضوع الفخار، بتنظيمها لمعارض خاصة بالفخار أو شاملة لتراث المنطقة، مثل جمعية ذاكرة الريف، ودخول مجموعة من الغيورين في مبادرات فردية لإنشاء متاحف خاصة بهذا التراث، كالحسين أفلي بمدينة الحسيمة، وحسين البوجدادي بمدينة العروي. وجذب هذا الموروث كذلك بعض الأجانب الذين كان مسقط رأسهم بالحسيمة، مثل خورخي فاغنز وزوجته ماريبا خوسي، اللذين أمضيا خمس عشرة سنة من الاشتغال على موضوع الفخار النسائي بالريف، ليتوج عملهما بكتاب عبارة عن فهرست catalogue لهذه الحرفة والممارسات لها، إلى جانب معرض شامل لهذه المنتجات، أقيم منذ فبراير 2009 في عدد من المدن بإسبانيا. (<http://www.arouit.com/news-regional/698.html>, décembre 2010)

رغم هذه المبادرات يبقى ملف المحافظة على التراث الفخاري بالريف عموما، والنسائي على وجه الخصوص مفتوحا، بالنظر إلى أهميته المتعددة الأبعاد، وتسارع تراجعه في بعض المناطق، مما يستلزم:

- القيام بأبحاث ودراسات متخصصة ومعقدة، تنصب على هذا التراث المتميز، وتعد مقارنة بين اللقى الأثرية المستخرجة من المناطق الريفية، بفعل التقنيات المحدودة، والمنتجات الجديدة؛
- إنجاز دراسات وأبحاث حول الخصوصيات المرفولوجية والوظيفية والزخرفية للخزف النسائي الريفي، للكشف عن مكوناتها، وتفكيك رموز لغتها، خاصة وأن الريفي يعتبر تلك الرموز والزخارف لغة، بدليل تسميته لأية أداة لا تحملها: الأداة البكاء والصماء، مثلا أغسار لالXا٥٥٥٥٥؛
- القيام بدراسات لسانية تستهدف جمع التراث اللغوي الأمازيغي المرتبط بهذه الصناعة، إنتاجا ومنتجاتا؛
- إنشاء متحف خاص بهذا التراث، بإحدى مدن الريف، إضافة إلى معرض/ متحف متنقل، للتعريف بهذه الثروة الثقافية؛
- دعم النساء الصانعات لهذا الفخار، في إطار النهوض بالاقتصاد الاجتماعي والتضامني بهذه المناطق، عبر دعم تعاونيات وتشجيعها لإنتاج الفخار وتسويقه، وخلق معارض محلية وجهوية ووطنية؛
- القيام بحملات تحسيسية وتعريفية بهذه الصناعة، وتشجيع المواطنين على اقتنائها، وتقديمها كهدايا، تميز المنطقة؛
- إنشاء مركز للتكوين في هذه الصناعة، واتخاذها مسلكا تكوينيا مهنيا في مراكز التكوين المهني والحرفي الموجودة بمناطق الريف؛
- انخراط الجمعيات المدنية والتنمية، وخاصة النسائية، في تثمين هذه الحرفة ومنتجاتها واعتماد مقاربات شمولية ومندمجة تستحضر مقاربة النوع والتمكين للنساء.

لائحة أسماء العمليات المرتبطة بصنع الفخار

- 1- اختيار المادة الأولية وجلبها +⊙⊗⊗⊗⊗ X ∑∧∑∑∑∑
- 2- النشر / ⊙⊗⊙⊙ | ∑∧∑∑∑∑
- 3- التبيس ∑⊙∑⊗⊗ | ∑∧∑∑∑∑
- 4- عملية الخبط والدق باستعمال مخابط / تازدوزت +⊗∧⊗⊗⊗⊗ ⊙ ⊗∧⊗⊗⊗⊗
- 5- عملية الغريلة / ⊙⊗∑∑∑∑
- 6- عملية العجن / ⊙⊗∧⊗⊗⊗
- 7- عملية التشكيل / ⊙⊗⊙⊙⊙⊙
- 8- عملية الصقل / ⊙∧⊙⊗⊗⊗
- 9- عملية الزخرفة / ⊙⊗⊙⊙⊙
- 10- عملية الشبي / ⊙⊗∧⊗⊗⊗⊗ X ∑∑∑∑∑∑

البيبلوغرافيا

تاوشیخت، لحسن (2008)، عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى.

علاش، صباح (تحت الطبع)، "نقل التراث المعماري: تجربة إميليو بلانكو إيزاكا بالريف نموذجاً"، أعمال ندوة أكادير 2009 *La préservation et la valorisation du patrimoine matériel culturel dans la région Sous-Massa-Draa*. المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

مونتكمري، هارت دافيد (2007)، آيت ورياغل قبيلة من الريف المغربي، دراسة إثنوغرافية وتاريخية، ترجمة وتقديم وتعليق محمد أونيا، عبد الحميد عزوزي، عبد الحميد الرايس، جمعية صوت الديموقراطيين المغاربة في هولندا، الطبعة الأولى.

Acién Almansa, M. Cressier, P., Erbat, L. et Picon, M. (1998), « La cerámica a mano de Nakur SS.IX-X producción beréber medieval », *Arqueología y Territorio Medieval*, 6 (Actas del coloquio La cerámica andalusí, 20 años de investigación, pp 45-70

Bazzana, A., ELhraiki, R. et Montmessin, Y. (2003), *La mémoire du geste, la poterie domestique et féminine du Rif Marocain*, Paris, Maisonneuve et Larose.

Berrada, H. (2001), *La poterie féminine au Maroc*, Casablanca.

ELhraiki, R. (1989), *Recherche ethnoarchéologique sur la céramique du Maroc*, thèse de doctorat, (Sous la direction de M. Picon), Lyon, 2 vols

Moga, R. (2009), *El Rif de Emilio Blanco Izaga, trayectoria militar, arquitectonica y etnografica en el Protectorado de España en Marruecos*, Melilla, Ediciones Bellaterra.

Pascon, P. et Der Wusten, Herman. (1983), *Les Beni Boufrah, essai d'écologie sociale d'une vallée rifaine (Maroc)*, Rabat.

www.minculture.gov.ma, décembre 2010

<http://www.arouit.com/news-regional/698.html>, décembre 2010